

٦١ — حديث جميل وبتيمة*

قال معبد : خرجتُ إلى مكة في طلب لقاء الغريص^(١) ، وقد بلغني حسنُ غنائه في لحنه :

وما أنسَ الأشياءَ لأنسَ شادِنًا^(٢) بمكةَ مكحولًا أسيلًا مدايمه
وقد كان بلغني أنه أولُ لحنٍ صنعه ، وأن الجنَّ نَهتَه أن يغنيه لأنه فتن
طائفةً منهم ، فاتقلوا بمن مكة من أجل حُسْنِه .

فلما قدمتُ مكة سألتُ عنه ، فدُلِّتُ على منزله ؛ فأتيتُه ففرعتُ الباب فما
كلمني أحد ، فسألتُ بعضَ الجيران فقلت : هل في الدار أحدٌ ؟ قالوا لي : نعم ،
فيها الغريص ، فقلت : إني قد أكرتُ دقَّ الباب ، فما أجابني أحدٌ ! قالوا : إن
الغريصَ هناك ، فرجعتُ فدققتُ الباب فلم يُجِبْنِي أحد ، فقلت : إن نَفَعَنِي غنائي
يوماً نَفَعَنِي اليوم ، فاندفعتُ فغَنَيْتُ حُني في شِعْرِ جميل :

عَلِقْتُ الهوى منها وليداً فلم يزلْ إلى اليوم يَنمِي حُبها ويزيدُ

فوالله ما سمعتُ حركةَ الباب ، فقلت : بطلَ سِحْرِي^(٣) وضاع سَفْرِي ،
وجئتُ أطلبُ ما هو عسيرٌ عليّ ، واحتقرتُ نفسي وقلت : لم يتوهمني^(٤) لضعف

* الأغاني : ٢ - ٣٨٧ ، تزيين الأسواق : ٣٧

(١) مفعول مشهور ، أخذ الغناء عن أبي سريح وبرع فيه ، واسمه عبد الملك ، والغريص لقبه ، قال ابن السكيت : شبه بالإغريص ، وهو الحمار فسمى به ، ثم نقل على الألسنة ، فحذفت الألف منه
(٢) من أصله الأشياء (٣) بطل سحري : ضاعت حيلتي (٤) لم يتوهمني : لم يعرفني .

غِنَائِي عِنْدَهُ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَاحِحٍ بِصِيحٍ : يَا مَعْبِدَ الْمَغْنَى ؛ أَفَهَمَ وَتَلَقَّ عَنِّي شِعْرَ
جَمِيلِ الذِّي تُغْنِي فِيهِ يَا شَقِيَّ الْبَيْخَتِ ، وَغَنِّي :

وَمَا أَنَسَ بِمِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوِي ^(١) : أَمَصَرَ تَرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعِيونُ الَّتِي تَرَى أَتَيْتُكَ فَاغْدِرْنِي فَذَتَكَ جُدُودًا
خَلِيلِيَّ مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنُ وَدَمْعِي بِمَا قَلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِفِرْوَةٍ وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

فَسَمِعْتُ شَيْئًا لَمْ أَسْمَعْ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَقَصَّرَ ^(٢) إِلَى نَفْسِي ؛ وَعَلِمْتُ فَضِيلَتَهُ عَلَيَّ
بِمَا أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ لِحُرِّيَّ بِالْإِسْتِئْذَانِ مِنَ النَّاسِ تَنْزِيهًا لِنَفْسِهِ ، وَتَعْظِيمًا
لِقُدْرَتِهِ ، وَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْإِبْتِذَالَ ، وَلَا أَنْ تَتَدَاوَلَ الرَّجَالُ ؛ فَأَرَدْتُ
الْإِنْصِرَافَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاجِعًا .

فَلَمَّا كُنْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِذَا بِصَاحِحٍ بِصِيحٍ بِي : مَعْبِدُ ؛ أَنْتَظِرُ أَكَلْمَكَ ، فَرَجَعْتُ
فَقَالَ لِي : إِنَّ الْغَرِيضَ يَدْعُوكَ ؛ فَأَسْرَعْتُ فَرِحًا ، فَدَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ ، فَقَالَ لِي :
أَنْحِبُ الدَّخُولَ ؟ فَقُلْتُ : وَهَلْ إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ ؟ فَفَرَعْتُ الْبَابَ فَفُتِحَ ، فَقَالَ لِي
ادْخُلْ وَلَا تُطَلِّ الْجُلُوسَ .

فَدَخَلْتُ فَإِذَا شَمْسٌ طَالِعَةٌ فِي بَيْتٍ ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : اجْلِسْ
فَجَلَسْتُ ، فَإِذَا أَنْبَلُ النَّاسِ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجْهًا وَخُلُقًا وَخُلُقًا ؛ فَقَالَ : يَا مَعْبِدُ ؛ كَيْفَ

(١) النضو : المهزول من الإبل (٢) قصر إلى نفسي : صغرها في عيني .

حَارَاتٌ^(١) إلى مكة؟ فقلتُ: جُعِلْتُ فداءك ا وكيف عرفتنى؟ فقال: بصوتك؛ فقلت: وكيف وأنت لم تسمعه قط؟ قال: لما غنيتَ عرفتك به وقلتُ: إن كان معبد في الدنيا فهذا. فقلت: جُعِلْتُ فداءك ا فكيف أجبني بقولك:

وما أنس مِ الأشياءِ لا أنسَ قولها وقد قرَّبتَ لِنصوى: أمِصْرَ تريد؟
فقال: لقد علمتُ أنك تريد أن أُسمِعَكَ صوتي:

وما أنس مِ الأشياءِ لا أنسَ شادِنًا بمكة مكحولاً أسيلاً مدَامِعُهُ
ولم يكن إلى ذلك سبيلٌ، لأنه صوتٌ نَهيتُ أن أُغْنِيَهُ، فغَنَيْتُكَ هذا
الصوتَ جواباً لما سألتَ وغَنَيْتَ؛ فقلتُ: والله ما عدوتَ ما أردتُ. فقال لي:
يا أبا عبيد؛ لولا ملالةُ الحديثِ، وثقلُ إطالةِ الجلوسِ لاستكثرتُ منك فاعذُر.
فخرجتُ من عنده، وإنه لأَجَلُ الناسِ عندي، ورجعتُ إلى المدينة فتحدثتُ
بجديته، وعجبتُ من فِطْنَتِهِ وقِيافَتِهِ^(٢)، فما رأيتُ إنساناً إلا وهو أجلُّ منه
في عيني.

وذكرتُ جميلًا وبُشَيْدَةَ فقلتُ: أيتنى عرفتُ إنساناً يحدثني بقصة جميلة وخبرِ
الشعرِ فأكون قد أخذتُ بفضيلةِ الأمرِ كله في الغناء والشعرِ، فسألتُ عن ذلك
فإذا الحديثُ مشهور، وقيل لي: إن أردتُ أن تُخَبِّرَ بحبره فأتِ بني حنظلة، فإن
فيهم شيخاً منهم يقال له: فلان، يُخَبِّرُك الخبرَ.

فأتيتُ الشيخَ فسألته فقال: نَعَمْ؛ بينا أنا في إِبِلِي في الربيعِ إذا أنا برجلٍ
مُنطَوٍ على رَحْلِهِ كأنه جانٌ^(٣)، فسلمَ عليّ، ثم قال: بمن أنتَ يا عبد الله؟ فقلت: أحدُ

(١) طرأت: أقبلت فجأة. (٢) فاف الأثر قيادة: تدبمه وعرفه (٣) حبة لا تؤذى كثيرة في الدور.

بنى حَنْظَلَةَ ، قال : فانتسب ؛ فانتسبتُ حتى بلغتُ إلى فِجْدَى الذى أنا منه ؛ ثم سألنى عن بنى عُدْرَةَ أين نزلوا ؟ فقلت له : هل ترى ذلك السَّفْح ؟ فإنهم نزلوا من ورائه ؛ قال : يا أبا بنى حَنْظَلَةَ ؛ هل لك فى خير تصطنعه إلى ؟ فوالله لو أعطيتنى ما أصبحتَ تسوق من هذه الإبل ما كنتُ بأشكرَ منى لك عليه ، فقلت : نعم ، ومن أنتِ أوْلاً ؟ قال : لا تسألنى من أنا ولا أخبرك لو سألتنى ؛ غير أنى رجلٌ بينى وبين هؤلاء القوم ما يكونُ بين بنى العم ، فإن رأيتَ أن تاتيتهم فإنك تجمد القوم فى مجلسهم ، فتَنشُدُهُمْ^(١) بِكَرَّةٍ أَدْمَاءَ تَجْرُ حَنْظَلَةَ غُفْلًا مِنَ السِّمَةِ^(٢) ، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك ، وإلا استأذنتهم فى البيوت وقلتُ : إن المرأة والصبي قد يريان ما لا يرى الرجال فتَنشُدُهُمْ ولا تدعُ أحداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلا نشدتها فيه .

فأتيتُ القومَ فإذا هم على جَزُورٍ^(٣) يَقْتَسِمُونَهَا ، فسأمتُ وانتسبتُ لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لى شيئاً ، فاستأذنتهم فى البيوت وقلت : إن الصبي والمرأة يريان ما لا يرى الرجال ، فأذِنُوا ، فأتيتُ أقصاها بيتاً ، ثم استقرتُها بيتاً بيتاً أنشدتهم فلا يذكرون شيئاً ، حتى إذا انتصفَ النهار ، وآذانى حرُّ الشمس وعَطِشْتُ وفرغتُ من البيوت ، وذهبتُ لأنصرفَ حانتُ منى التفاتةً فإذا بثلاثة أبيات فقلت : ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم ، ثم قلت لِنَفْسِي : سوءةٌ ! وثق بى رجلٌ ، وزعم أن حاجته تعدلُ مالى ، ثم آتية فأقول : عَجَزْتُ عن ثلاثة أبيات !

(١) تنشدهم : تناديهم ونسألهم عنها ، والبكرة الفئحة من الإبل ، والآدم من الإبل : الأبيض .

(٢) السمة : العلامة ، وغفلا من السمة : أى ليست فيها علامة (٣) الجزور من الإبل يقع على

فانصرفتُ عائداً إلى أعظمها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْحِي مُؤَخَّرُهُ ومقدَّمُهُ ،
فسلمتُ فَرُدَّ عَلَىَّ السلام ، وذكرتُ ضالَّتِي ، فقالت جارية منهم : يا عبدَ الله ؛
قد أصبتَ ضالَّتَكَ ، وما أظنُّكَ إلا قد اشتدَّ عليك الحرُّ ، واشتهيتَ الشرابَ ؛
قلت : أجل ؛ قالت : ادخل ؛ فدخلتُ ؛ فأتتني بصحفةٍ فيها تمرٌّ من تمرِ هَجَرَ^(١)
وقدَح فيه لبن ، والصحفةُ مصرية مُفَضَّضَةٌ ، والقَدَحُ مُفَضَّضٌ لم أر إناء قطُّ
أحسنَ منه ، فقالت : دونك . فتجمَّعتُ وشربتُ من اللبنِ حتى رَوَيْتُ ، ثم قلتُ :
يا أمةَ الله ؛ والله ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منك ولا أحقَّ بالفضل ؛ فهل ذكرتِ من
ضالَّتِي شيئاً ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرةَ فوق الشرفِ^(٢) ؟ قلت : نعم ؛ قالت :
فإنَّ الشمسَ غرَبتْ أمس وهي تُطِيفُ حولها ، ثم حال الليلُ بيني وبينها ؛ فقمْتُ
وجزيتُها الخبيرَ ، وقلت : والله لقد تعدَّيتُ ورويتُ .

فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ فَأَطَفْتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثر ؛ فأتيتُ
صاحبي فإذا هو متشجِّحٌ في الإبلِ بكسائه ورافعٌ عقيرته^(٣) . فبغني . قلت : السلام
عليك . قال : وعليك السلام ، ما وراءك ؟ قلت : ما وراءي من شيء ؛ قال : لا
عليك ! فأخبرني بما فعلتُ ، فافتتصمتُ عليه القصةَ حتى انتهيتُ إلى ذِكْرِ المرأةِ
وأخبرته بالذي صنعتُ ؛ فقال : قد أصبتَ طَلِبَتِكَ ؛ فعجبتُ من قوله وأنا لم أجد
شيئاً .

(١) هجر : بلد باليمن مشهورة بالتمر (٢) الشرف : المكان العالي (٣) عقيرة الرجل :
صوته إذا غنى أو أبكى .

ثم سألتني عن صفة الإناءين : الصَّحْفَةُ والقَدَحُ ؛ فوصفتها له ، فتنفَس الصَّعْدَاءُ وقال : قد أصبتَ طلبتِكَ ، وَيَنحَكَ ! ثم ذكرتُ له الشجرةَ وأنها رأتهَا تُطيفُ بها ، فقال : حَسْبُكَ ! فكثرتُ حتى أوتيتُ إِبِلِي إلى مَبَارِكهَا ودعوتهُ إلى العشاءِ فلم يَدُنْ منه ، وجلسَ مِنِّي بِمَزَجَر ^(١) الكلب .

فلما ظنَّ أَنِي قد نمتُ رَمَمْتُهُ ، فقام إلى عَيْبَةِ ^(٢) له ، فاستخرجَ مِنهَا بُرْدَيْنِ فَأَنْزَرَ بِأَحَدِهِمَا وَتَرَدَّى بِالْآخِرِ ، ثم انطلقَ عَامِداً نحوَ الشجرةِ . واستبطنتُ الوادِيَّ فجعلتُ أُخْفِي نَفْسِي ، حتى إِذَا خِفْتُ أَن يراني انبطحتُ ؛ فلم أَزَلْ كذلك حتى سَبَقْتُهُ إلى شجراتٍ قَريبَةٍ من تلكِ الشجرةِ ، بحيثُ أسمعُ كَلامَهُمَا ، فاستترتُ بِهِنَّ ، وَإِذَا صاحِبُهُ عندَ الشجرةِ ، فأقبلَ حتى كانَ مِنهَا غيرَ بعيدٍ ، فقالت : اجلسْ ؛ فواللهِ لكانَ لَصِقَ بالأرضِ ، فسَلَّمَ عليها وسألها عن حالها أَكْرَمَ سؤالا ، وأبعدهُ عن كُلِّ رِيبةٍ ، وسألتهُ مثلَ مسألتهِ ؛ ثم أمرتُ جاريةَ مَعها ، فقَرَّبَتْ إليه طعاما ، فلما أَكلَ وفرغَ ، قالت : أَنشدني ماقلتُ ، فَأَنشدها :

عَلِقْتُ الهَوَى مِنهَا وليداً فلم يَزَلْ إلى اليَوْمِ يَنبِي جِبْها وَيَزِيدُ
ثم لم يَزَلْا يَتَحَدَّثَانِ ، مايقولانَ فُحْشا ولا هُجْراً ، حتى التفتتِ التفتانِ ،
فنظرتُ إلى الصبوحِ ، فودَّعَ كُلُّ واحِدٍ مِنهما صاحِبَهُ أحسنَ وداعٍ ما سمعتُ به
قطاً ، ثم انصرفا .

فَقمتُ فمضيتُ إلى إِبِلِي ، فاضطجعتُ ، وكلَّ واحِدٍ مِنهما يمشي خطوةً ثم يلتفتُ
إلى صاحِبِهِ ، فجاءَ بعد ما أَصْبَحْنَا فرفعَ بُرْدِيهِ ثم قال : يا أَخا بني تميم ؛ حتى متى

(١) أي جلس بعيداً (٢) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع .

تَنَامُ افَقَمْتُ وتوضأتُ وصليتُ ، وحلبتُ إِبِلِي ، وأعانتني عليها ، وهو أظهرُ الناسِ سروراً ، ثم دعوتهُ إلى الغداء فنغدَى ؛ ثم قام إلى عَيْبَتِهِ فافتتحها فإذا فيها سِلَاحٌ وبُرْدَانٌ مما كسته الملوكة ، فأعطاني أحدهما وقال : أَمَا وَاللَّهِ لو كان معي شيءٌ ما دَخَرْتُهُ عنكَ ، وحدثني حديثه وانتسب لي ، فإذا هو جميلُ بنِ مَعْمَرٍ والمرأةُ بُثَيْنَةُ ، وقال لي : إني قلتُ آيَاتًا في مُنْصَرِّ في من عندها ، فهل لك إن رأيتها أن تُنْشِدَهَا؟ قلتُ : نعم ؛ فَأَنْشِدَنِي :

وما أنسِ بِالأشياءِ لا أنسَ قولها	وقد قرَّبتُ نِضْوِي : أمصرَ تريدُ؟
ولا قولها لولا العيونُ التي ترى	أنتِئكَ فأعذرنِي فدَتَكَ جُدودُ
خليلِي ما أخني من الوجدِ باطنُ	ودمعي بما قلتُ النداءَ شهيدُ
يقولون : جاهدْ يا جميلُ بفزوةِ	وأى جهادٍ غيرهن أريدُ
لكلِّ حديثٍ عندهن بشاشةٌ	وكل قتيلى ينهن شهيدُ

ثم ودعني وانصرف

فكنتُ حتى أخذتِ الإبلُ مراتعها ، ثم عمدتُ إلى دهنٍ كان معي فدَهنتُ به رأسي ، ثم ارتديتُ بالبردِ وأتيتُ المرأةَ ، فقلتُ : السلام عليكم ؛ إني جئتُ أمس طالباً واليوم زائراً ، أفتأذنون ؟ قالتُ : نعم ، فسمعتُ جَوَيرِيَةَ تقول لها : يا بُثَيْنَةُ ؛ عليه والله بُردٌ جميلٌ ، فجعلتُ أثنى على ضيفي وأذكرُ فضلَه ، وقلتُ : إنه ذكركِ فأحسنِ الذكرَ ، فهل أنتِ بارزةٌ حتى أنظُرَ إليك ؟ قالتُ : نعم ، فلبستُ ثيابها ثم برزتُ ودعتُ لي بطرفٍ ، ثم قالتُ : يا أخا بني تميم ، والله ما ثوباك هذان بمشديهمين ، ودعتُ بعَيْبَتِهَا ، فأخرجتُ لي مِلْحَفَةً ^(١) مَرَوِيَّةٌ مُسَبَّمَةٌ من العصفُر ، ثم قالتُ :

(١) المِلْحَفَةُ : اللباس الذي فوق اللباس من دثار البرد ونحوه ، ومروية : نسبة إلى مرو .

أقسمت عليك لتقومنَّ إلى كِسْرِ البيتِ ولتَخْلَعنَّ مِدرَعَتَكَ^(١) ، ثم لتَأْتِرَنَّ بهذه
الملحفة، فهي أشبه بِبُرْدِكَ، ففعلتُ ذلك؛ وأخذت مِدرَعَتِي بيدي؛ فجعلتها إلى جانبي،
وأنشدتها الأبيات؛ فدمعتُ ، وتحدثننا طويلاً من النهار ، ثم انصرفتُ إلى أبي
بِمَلْحَفَةٍ بُثِينَةٍ وَبُرْدٍ جَمِيلٍ وَنَظْرَةٍ مِنْ بَثِينَةٍ .

قال معبد : فجزيتُ الشيخَ خيراً ، وانصرفتُ من عنده . وأنا والله أحسنُ الناسِ
حالاً بِنَظْرَةٍ مِنَ الْغَرِيضِ وَاسْتِمَاعِ لَعْنَانِهِ ، وَعِلْمِ بِحَدِيثِ جَمِيلٍ وَبَثِينَةٍ فِيمَا غَنَيْتُ
أَنَا بِهِ ، وَفِيمَا غَنَى بِهِ الْغَرِيضُ عَلَيَّ حَقٌّ ذَلِكَ وَصَدَقَهُ ؛ فَمَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بُرُوجِينَ
قَطًّا أَحْسَنَ مِنْ جَمِيلٍ وَبُثِينَةٍ ، وَمَنْ الْغَرِيضُ وَمَنِّي .

(١) المدرعة : نوع من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .